

د. سناء شعلان في قصة "سبيل الحوريات"

د. شوكت درويش *

الصلة بين الحضارات قديمة منذ نشوئها، ويظل الاحتكاك بينها قائماً؛ يعلو أحياناً، ويهبط أخرى، تبعاً للنظرة للأخر، ففي أحيان تسيطر حضارة الغالب المنتصر على حضارة المغلوب المنهزم، أو حضارة المجتمعات الراقية على حضارة المجتمعات المتخلفة، وهذه الصلة لها إيجابياتها ولها سلبياتها، ولكن لا بد منها، فهي ضرورية ضرورة التميز الثقافى، أو التناقض، وقد تظل قائمة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولا ضير في ذلك، ولكن إذا كان سيف القهر مسلطاً على الشعوب المستضعفة، فقد يكون اللجوء إلى التراث استنهاضاً للهمم، وإيقاظاً للشعور بالعزة والكرامة، ومطالبة بالإتكاء عليه في النهوض واللاحق بركب التقدم والازدهار لبناء حضارة جديدة جذورها في التراث، وأغصانها وفروعها في المعاصرة.

في قصة "سبيل الحوريات" للدكتورة سناء شعلان ارتباط بالتراث أيما ارتباط، نراها تنزع إلى معلم من معالم حضارة الأردن لتدير حوله قيمة تراثية كان لها امتداد عبر حقب زمنية لم تشر إليها - لأن هذا ليس لازماً من قبل القاصّة - سوى ما يخدم قصتها، وما يضيف على بطلها - الذي لم تسمه، لأن كل واحد هو بطل قصتها - من خيالات، لما كان يعمره من فانات أيام كان السبيل سبيلاً. " وهو حمام روماني قديم، تهدم معظمه بفعل الزلازل الأرضية، ولكن فناءه الداخلي، وغرف تبديل الملابس، وأحواض الاستحمام ما تزال بكامل وجودها."

* الجامعة الأردنية، الأردن.

"سبيل الحوريات" من المنشآت الرومانية في عمان، وقد كان هذا البناء على جانب كبير من الفخامة والجمال حيث كانت تغطي جدرانها الداخلية ألواح من الرخام، والرسوم الجدارية، أقيم هذا البناء على شكل نصف مئمن، ويرتفع في ثلاثة أدوار، ويضم ثلاثة محاريب على جانب كل واحد منها دوران من الحنيات الصغيرة التي أعدت لاحتواء التماثيل الرخامية، ونوافير المياه، ويرتفع فوق مجرى سيل عمان - الذي يخترق وسط المدينة - على أربعة عقود برميلية، وكان الماء يمر تحت العقد الجنوبي، أي يمر في البناء، والسبيل كانت السلطات تقيمه تكريماً لعائلة الإمبراطور في الطرقات لإرواء ظمأ عابري السبيل، والكلمة مأخوذة من سبَل الماء؛ أي: جعله في سبيل الله والخير. والسبيل دائم الجريان، ولذلك سمي "سبيل الحوريات"؛ لأن حوريات الماء تسكن المياه الجارية، وتم استعمال البناء في عمان في أزمنة لاحقة بيزنطية وأموية.^١

هذه العجالة عن "سبيل الحوريات" لا بد منها؛ لأنها تنير بعض جوانب هامة، فالارتباط بالعاصمة واحد منها، ومحاولة رسم معلّم هام من معالمها - سبيل الحوريات وما يمثله هذا المعلم من امتداد تراثي - قيمة تراثية - تتكئ عليها القاصّة للدعوة إلى النظرة إلى القيم التراثية من جوانب متعددة، ليس البطل رساماً فحسب، ولكنه عاشق فنّه، واعٍ لعمله، مُضفٍ عليه شيئاً من المسحات الجمالية التي يبتكرها خيال العاشق الولهان "يرسم لوحة واحدة لكل مكان أثري، ولا يزيد. والعاشق البطل أمام هذه القيمة الحضارية - الثقافية والمعمارية" منذ أيام طويلة عالق أمام سبيل الحوريات، يرسمه من قريب، ومن بعيد، من أكثر من زاوية يضي عليه أرواحاً وأجساداً وضحكات. "هذه القيم التراثية، هذه القيم الثقافية؛ لا ينظر إليها البطل من زاوية واحدة، بل

^١ عمان تاريخ وصور، أرسلان رمضان بكج؛ منشورات أمانة عمان؛ ٢٠٠٢؛ ص (٨٧). وعمان الكبرى تاريخ وحضارة؛ د. فوزي زيادين، موسوعة عمان ٢، منشورات أمانة عمان؛ ٢٠٠٤؛ ص (١٢٦-١٢٧).

يتفحصها من كل الجوانب، متخيلاً الأجداد الذين صنعوا هذه القيم الحضاريّة و"يضيف عليه أرواحاً وأجساداً وضحكات" ولكي تكمل المشهد المتخيل "تغيب منه أجزاء في اللوحة، وتحضر أخرى" حسب الاحتكاك بين الحضارات، ولكن تبقى القيمة التراثية هي الفضاء الرحب الذي يثبت أمامها، ملازمة القاصّة حتى آخر نبض في القصة " لكن وجهها هي بالذات عنصر ثابت في كل لوحاته.

"إنه مفتون بسبيل الحوريات" وهل يفتن إلا المحب الولهان، وحبك الشيء يُعمي ويُصم؛ " بل إنه يتخيل فيه عشرات النساء العاريات كأقمار في ليلة صيف، وإنه يناجيهن ويستمتع برؤيتهن وبمداعبتهن " إنه خيال العاشق، عاشق يضيف مسحاَ جمالية على محبوبه، أحب التراث وعائشه، وأسقط عليه ما تخيله أيام كان الصرح صرحاً حضارياً، ينبئ عن عظمة بانيه، واستمراره على امتداد عصور وعصور مع ما أضافه كل آت لمن سبقه، وظل إلى يومنا هذا شاهداً على عظم بُناته، وحق لنا أن نفخر بهم، وبما شادوا.

القيمة الحضاريّة - وبخاصة التراثية - عادة ما ينظر إليها الدارسون نظرتين متضادتين؛ إحداهما: على أنّها بالية ولا تستحق العناية والجهد اللذين يبذلان في دراستها، والأخرى: على أنّها محترمة ومقدمة وهي الأصول والجدور التي حملتنا فروعاً لها، ولذا فإنها تستحق العناية والجهد والدراسة العميقة.

"هاجر" بطلة القصة، قيمة حضاريّة، فلذلك سمتها، لا يعي قيمتها إلا فنان حاذق، رسمها من كل جوانبها، درسها درساً عميقاً بوعي، وعرف قيمة تعريها، عرف صلتها بما هو كائن الآن من عدم معرفتها، ومعرفة ارتباطها بالتراث، ففي البداية نراها "نعم، تستهويه بكل ما فيها بملابسها القذرة، بأطرافها المتسخة، بأظافر القذرة، بشعرها الأشقر المتطاير بفوضى مسحت

أي أثر لتمشيط حدث في الزمن الغابر - دراسة التراث - بدموعها التي تذرفها وهي تستجدي المارة - لدراستها - بحالات الجنون التي تنتابها - بالنظر المعمق لفهمهما - فتجعلها تتعري من ملابسها - مما يسترها عن أعين الدارسين ويبحث الباحثين - وتنصب نفسها إلهة مجنونة ترقص عارية في سبيل الحوريات - إلهة - تستحق الإجلال والاحترام.

وتشرك القاصّة الجميع في النظر إلى "هاجر" القيمة التراثية الحضارية التي نفع إليها عندما تنوبنا نائبة؛ "الصغار يتصايحون، والرجال يحوقلون، وبعض النساء تتبرع لسترها بملابسها من جديد" هي جزء من الحضارة، هي ذاكرة الحضارة "نهاراتها تقطعها بين آثار سبيل الحوريات، وفي الليل تتكور في ركن منه وتنام ملء شواردها والسياح يقصدون الأماكن الأثرية ليلتقطوا لهم صوراً معها، أو: صوراً لها، وروح حضارتنا "كانت تفرح عندما تلمع في عينيها أنوار كاميرات السياح - وهي في عز جنونها وقذارتها - عليهم يعرفون عنها - عن حضارتنا - شيئاً، عليهم يعرفوننا حق المعرفة، ولكن

قابلها لأول مرة وهي في نوبة من نوبات جنونها ... لكنها كانت جميلة ... لحظتها شعر بأنا إلهة مسحورة ينفك سحرها في ماء مقدس ... كان نفساً تتذوق نفساً".

هو المهندس المعماري الذي يعرف عن وعي ودراسة ما حوله في سبيل الحوريات، وما تضيفه هاجر على فنّه وعلمه، وما هي بحاجة إليه من مسح ما علق بها من قاذورات وأوساخ، وما أن "أهداها مشبكين للشعر" حتى بذلت محاولة جادة لتمشيط شعرها "وعكر صفو عمله" أول قطرات مطر من الشتاء "وما جعلها تتفاعل مع تداخل الألوان في اللوحة" يا ... خسارة ... فسدت اللوحة

" واصطحبها إلى شقته في " الحي اللاتيني " التي تذكرنا برواية الدكتور سهيل إدريس في مطلع الخمسينيات، والتي رسم فيها العلاقة بين الشرق والغرب " ولكن في عالم جديد، عالم نسعى إليه نكون فيه إنسانين لا شرقيين فقط، عالم تتغير فيه مفاهيمنا عن الإنسانية والحرية والمسؤولية، عالم هو البداية التي انتهت بها قصة " الحي اللاتيني " لسهيل إدريس.

" وأعدت أمه بالسؤال عليه :

- لقد انتهينا الآن إذن يا بني ؛ أليس كذلك ؟

فأجابها دون أن ينظر إليها :

- بل الآن نبدأ يا أمي. ^٢

"واختفت هاجر، وافتحدها سبيل الحوريات، ... كذلك اختفى الفنان الذي ظهر من جديد في مدينة أخرى ... " وإن كان زوجها الوحيد الذي يعرف أنه يملك زوجة ساحرة عيبتها الوحيد - عندما تحل نائبة في الشرق، وتتفاعل مع الأحداث " تتعري عندما تغضب، وتشعر في البكاء.

وكثيراً ما نسمع في هذه الأيام الصيحات التي تنطلق من الغرب أن الكثرة الكاثرة من الغربيين لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، ولا عن الحضارة العربية الإسلامية شيئاً، فيعود " الاستمرار التوتري القديم في تحديد موقع الجماعة الثقافية العربية في العالم، أي : ما اصطلح عليه بفكرة الهوية من نحن ؟ من الآخر ؟ واشتداد ميول الانغلاق (الخصوصية، الأصالة) القائمة على نظرة ميتولوجية - أسطورية - أو : نظرة أيديولوجية - عقديّة - إلى الذات والآخر. " ^٣

^٢ مشكلات ونماذج في " الحي اللاتيني " : رجاء النقاش : الآداب : ع ٦ : حزيران - يونيو ١٩٥٤ : ص (٤٦-٩).

^٣ كتاب في جردية : ع ١٠٧، في الأحوال والأهوال من المنابع الثقافية والاجتماعية للعنف : فالح عبد الجبار : ٤ تموز ٢٠٠٧.

المراجع:

١. أرسلان رمضان بكج: عمان تاريخ وصور، منشورات أمانة عمان؛ ٢٠٠٢.
٢. د. فوزي زيادين: عمان الكبرى تاريخ وحضارة، موسوعة عمان ٢، منشورات أمانة عمان؛ ٢٠٠٤.
٣. رجاء النقاش: مشكلات ونماذج في "الحي اللاتيني"؛ الآداب؛ ع ٦؛ حزيران - يونيو ١٩٥٤.
٤. فالح عبد الجبار: كتاب في جردية؛ ع ١٠٧، في الأحوال والأهوال من المنابع الثقافية والاجتماعية للعنف؛ ٤ تموز ٢٠٠٧.

..... ❖❖❖❖